الذاتية في الشعر العربي الحديث

عامر الطيب محمد طيب[1] - مبارك حسين نجم الدين[2] - هويدا سليمان [3]

المستخلص:

بعد دخول الحملة الفرنسية إلى مصر، واتصال الشرق بالغرب عن طريق البعثات العلمية إلى أوربا : (انجلترا و فرنسا) تأثر بعض الشعراء العرب الذين سافروا إلى تلك البلدان بآدابها ؛ فنتج عن هذا التأثر تطورٌ في الأفكار، والعواطف والأخيلة لدى الشاعر العربي . ولما كان القرن العشرون اصطدمت الذات الشاعرة فيه بأحداث عنيفة وهزات قوية منها على سبيل المثال : الحرب العالمية الأولى والثانية، وما أفرزته من تردى في الأوضاع السياسية والاقتصادية ، ثم فشل الثورات العربية وما تمخض عنه من شعور بالحزن والإحباط والانكسار وما تبع ذلك من نكبة فلسطين ، وحرب النكسة ثم توالت الأحداث على الإنسان العربي، فولَّد هذا كله لدى الشاعر العربي إحساساً بالغربة والضياع.ولذا كان الهدف من خلال هذا البحث ما يأتي: * وضع فكرة عامة نستطيع من خلالها أنْ نتعرف على السمات الذاتية لكل شاعر ورد اسمه في هذا البحث.* إبراز الجوانب الذاتية لدى شعراء المدارس التي سيرد ذكرها في هذا البحث. ولما كان هذا البحث يسعى للكشف عن المظاهر الذاتية في الشعر العربي الحديث اتبع الباحث المنهج الوصفي. ومن النتائج التي توصل إليها في هذا البحث : * إن الشعر العربي الحديث أرض خصبة فهو يحتاج إلى مزيد من الدراسات والبحوث .* استطاعت ذات الشاعر في الأدب العربي الحديث أن تتفاعل مع قضايا الحياة والكون دون أن تذوب فيها بمعنى أنها حافظت على ذاتيتها على الرغم من تواصلها مع الآخرين.

ABSTRACT:

After the French campaign and the conquest of Egypt and the contact of Orient and Occident through the scientific expeditions, many Arab poets who left to the West were affected by the new literature. The influence has touched everything including the thoughts, feelings and imaginations of the immigrant poets, but in the 20 centuries they were strongly affected by major events including the World War II which resulted in political and economic decline in addition to the failure of the Arab Revolutions which in turn has created state of disappointment and regret. Following Palestine War and the Annakbah (Setback) War, the Arabs and the Arab poets felt alienated and lost.The study, hence, aims to explore the qualities of each of the poets mentioned in the dissertation and the characteristics of their schools. To investigate the characteristic of the modern Arab poetry, the researcher has adopted descriptive analytical approach and came up with following conclusions: The modern Arab poetry is fertile area, so more studies are needed conducted on this field.The modern Arab poet has reacted with everyday life and global issues without losing their identities amid the contact with others.

الكلمات المفتاحية :

النفسية – القوة الإبداعية – الشخصية

[1]- جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا- قسم اللغة العربية- 0911600051

[2]- جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا- كلية اللغات - قسم اللغة العربية - 0909444167

[3]- جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا- كلية اللغات - قسم اللغة العربية- 0912632361

المقدمة :

اصطدمت ذاتية الشاعر العربي الحديث بأحداث جمَّة، وهزَّات عنيفة في مختلف أوجه الحياة وخاصة السياسية والاقتصادية منها، ومن الأحداث السياسية مثلاً: فشل الثورات، والهزائم الملاحقة للجيوش العربية في أكثر من جبهة فانعكس هذا الوضع السياسي على الحياة الاقتصادية والاجتماعية فكانت مظاهر الفقر المُدقِع وتفشي الجهل والمرض، هذه العوامل وغيرها جعلت الشاعر حينئذٍ يتفاعل مع هذه الأحداث ويعبر عنها في شعره ، فكان البارودي مثالاً يحتذى في التعبير عن قضايا أمته دون أن تضيع ذاته.

ولما كانت الأوضاع السياسية والاقتصادية قد ألقت بظلالها على الشعراء وقتذاك لم يسلم من هذا الواقع شعراء مدرسة الديوان الذين وضعوا لأنفسهم طريقاً للتعبير عن الذات فاتفقوا على أن الشعر تعبير عن الوجدان الخالص مما يعني التعبير عن ذاتية الشاعر والناظر في الشعر المهجري يجد أنَّه اتخذ من الطبيعة ملاذاً آمناً فامتزجت معها أي مزج الذات بالطبيعة أو الطبيعة بالذات ، فنتج عن ذلك شعر يحكي أبرز ملامح ذواتهم دون أن ننسى حنينهم إلى أوطانهم الذي يُعَدُّ مظهراً من مظاهر الذات في شعرهم .

مفهوم الشعر عند القدامى والمحدثين :

جاء في لسان العرب [4] (شَعَرَ به وشَعُرَ به شَعُرَ يشعُرُ شِعْراً وشُعُوراً وكلها بمعنى علم ، وليت شعري أي ليت علمي أو ليتني علمت . والشعر منظوم القول غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية وإن كان لكلِّ علم شعرٌ من حيث غلب الفقه على علم الشرع ، وقال الأزهري : الشعر القريض المحدود بعلامات لا يجوزها ، والجمع أشعار ، وقائله : شاعر ؛ لأنَّه يشعر بمالا يشعر به غيره أي يعلم وقيل شَعَرَ قال الشِّعْر ، وشَعُرَ أجاد الشعر ، والجمع شعراء ، ويقال شعرتُ لفلان أي قلتُ له شعراً وأنشد :

شعـــرتُ لكم لما تبين فضلكـــم

على غيركم ، وما سائرُ الناسِ يَشْعُرُ

وسُمِيَ الشاعُر شاعراً لفطنته.

مفهوم الشعر عند النقاد القُدامى :

لعلَّ مفهوم الشعر في الحياة الأدبية قبل الإسلام كان يقوم على النظرة التركيبية التعميمية التي تُعبِّرُ عن الانطباع الكلي دون اللجوء إلى التعليل وتصوير ما يجول في النفس بصورة أقرب إلى الشعر نفسه واستمرَّ هذا الأمر حتى أواخر القرن الثاني الهجري .

ويرى الاصمعي أنَّ الشعر : إذا أدخلته في باب الخير لان ، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان فحلاً في الجاهلية والإسلام ، فلما دخل شعره في باب الخير لان شعره [5]

ويقول ابن سلام الجمحي حول مفهوم الشعر وقد اختلفت العلماء في فهم الشعر ، كما اختلفت في سائر الأشياء ، فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه . وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات : منها ما تثقفه العين ومنها ما يثقفه الأذن ، و منها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان.[6]

ويرى الجاحظ أنَّ الشعر ما كان متلاحم الأجزاء سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً فهو يجري على اللسان كما يجرى الدِّهان ، كما يجب أن تتفق حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر حتى كأنَّ البيت بأسره كلمة واحدة وحتى كأنَّ الكلمة بأسرها حرف واحد [7]

([4]) ابن منظور، محمد بن مكرم(د.ت) لسان العرب، مادة: (شـــعر)، دار المعارف، القاهرة، ، ص409.

([5]) المرزباني(1965م) الموشح ماخذ العلماء على الشعراء، جمعية نشر الكتب العربية، الطبعة الثانية، القاهرة ، ص85.

([6]) ابن سلام الجمحي، (د.ت) طبقـــات فحـــول الشـــعراء، قـــرأة ، وشرحه12: محمود محمد شاكر، السفر الأول، مطبعـــة المـــدني ، ص524.

([7]) الجاحظ (د.ت) البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الرابعة ، ج1، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص67.

مفهوم الشعر عند النقاد المعاصرين :

حاولت جماعة مدرسة الديوان تحديد مفهوم للشعر وذلك من خلال كتاباتهم والتي جاءت في مقدمة العقاد للجزء الثاني من (ديوان شكري) بعنوان : (الشعر ومزاياه).

جاء فيها : (إنَّ الشعر حقيقة الحقائق ولبُّ الألباب والجوهر الصميم من كل ماله ظاهر في متناول الحواس والعقول وهو ترجمان النفس والناقل الأمين عن لسانها)[8]

ولا يختلف مفهوم المازني للشعر عن مفهوم صاحبيه حين قال : (ما الشعر إلا معان لا يزال الإنسان ينشئها في نفسه ويصرفها في فكره ويناجي فيها قلبه، ويراجع بها عقله، والمعاني لها في كل ساعة تجدد ، وفي كل لحظة تردد وتوليد، والكلام يفتح بعضه بعضاً ، وكلما اتسع الناس في الدنيا اتسعت المعاني كذلك) [9]

أمَّا صلاح عبد الصبور فهو يرى : (أن الشعر هو الصوت المنفعل ، والشاعر إنسان يتميز عن الآخرين بقدر ما يتشابه معهم ، والانفعال المدرب هو عدة الشاعر، وعلة الموسيقي في الشعر أن الانفعال عندما يصل مداه ، لا بدَّ له من التنغيم . وليس الفرق بين الشعر والنثر إلا فرقاً في نوعية الموسيقي ؛ فموسيقى الشعر تتركز وتتواتر حتى تصبح لوناً من (المصطلح) أما موسيقى النثر فهي مطلقة كإطلاقه) [10]

فالشعر العربي الحديث هو انعكاس للتمرد العربي على الواقع السياسي والاجتماعي ، أي جزء من الثورة الجذرية في الكيان العربي أو قُلْ هو جزء من زحزحة العتيق وبناء الجديد ، بل صدًى لخريطة العالم العربي وما تموج به من تحولات ومن تساؤلات ، ومِن تطوُّر في النظرة إلى الحياة والمجتمع والإنسان المعاصر بكل فلسفاته وأزماته، وبكل ما فيها مِن تبرم وتناقض ورفض و ثورية).[11]

ومن النقاد منْ له رأي آخر ومن هؤلاء : عز الدين إسماعيل الذي يقول : (ليس هناك تعريفٌ جامع مانع للشعر، فكلُّ تعريف يبدو واسعاً جداً ضيقاً جداً والحقيقة هي أنَّ ماهية الشعر وحقيقته تختلف من عصر إلى عصر ، فهو يعيش بالتغيير وهو دائم التجدد بما يدخل فيه من متغيرات جديدة استجدت تبعاً لظروف كل عصر على حده ، فالشعر تجربة ذاتية سجلها الشاعر بكل أمانة ودقة ، وطبيعة الشعر مرنة والحقُّ أن مفهوم الشعر يدلُّ على التصوُّر للعمل الشعري أي التصوُّر العام المستنبط من كلِّ شعر والذي يتجلى في كُلِّ شعر)[12]

ظل النقاد منذ عرف الأدب والنقد، إلى يومنا هذا يتعرضون لوضع التعريفات المختلفة للشعر.

ومن الطبيعي أن تختلف هذه التعريفات وتتفاوت في مدى صحة فهمها للشعر باختلاف النقاد وتفاوت أمزجتهم وثقافاتهم وعقلياتهم وظروفهم العامة .

مصطلح الذاتية ودلالاته:

الذات في العُرف اللُّغوي :

قبل أن نبحث عن معني هذا المصطلح النقدي في اللُّغة لابدَّ من الإشارة إلى أنَّ كلمة (الذاتيَّة) ظهرت أول ما ظهرت في الغرب في منتصف القرن التاسع عشر وكانت تستخدم في مجال العلوم الإنسانية : مِن فلسفة وأخلاق ونفس ونقد أدبي وغيرها مِن الدراسات ، ومِن ثمَّ استعملها بعضُ النقاد الشرقيين في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين في مجال النقد الأدبي.

أمَّا عن معناها في معاجم اللُّغة فقد وردت كلمة (ذات) بمعانٍ متعددة ، ومِن ذلك ما جاء في المصباح

([8]) إبراهيم عبد الرحمن محمد (1997م) مناهج نقد الشعر في الأدب العربي الحديث، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ص152.

([9]) المرجع السابق ، ص153.

([10]) الصباغ، رمضان(2013م) جماليات الشعر العربي المعاصر، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ، ص54.

([11]) محمد زكي العشماوي(1984م) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان ص23.

([12]) عز الدين إسماعيل، (1955م) الأسس الجماليَّة في النقد العربي عرض وتفسير، ومقارنة، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، ص344.

المنير[13]. أنَّ الذات تُطلق ويراد بها الحقيقة ، وقد تطلق ويراد بها الرضي ، وقيل الذات تعني : الشيء نفسه وعينه ، والذات أعمُّ من الشخص ، لأنَّهُ يطلق على الجسم وغيره، والشخص لا يطلق إلاَّ على الجسم ، ويقال: ذات الشعر بمعنى حقيقته وما هيته وصار استعمالها بمعنى (النفس) أو الشيء عُرفاً مشهوراً حتى قال الناس : ذات متميزة ونسبوا إلى لفظها فقالوا : عيب ذاتِيّ بمعنى جبلِيّ ،والذات هي ما يصلح أن نُعلِمَ ونُخبِرَ عنه.

وجاء في لسان العرب [14] أنَّ الذات تعني : الجوهر .

الذات في علم الفلسفة :

أدرك النقد الحديث أن هناك صلة بين الشعر والفلسفة ، حيث انقسمت الاتجاهات الفلسفية إلى قسمين كبيرين ، يندرج الأول تحت نزعة المثالية التي ترى أن الأدب – مذهب الفن للفن– والمثالية في الأدب لا تقف عند حدود الواقع بل تتجاوزه دائماً إلى ما وراءه ، والواقع أنَّ فلاسفة الجمال يدرجون في مفهوم المثالية جميع فلسفات الجمال ويدرجون فيها مذهب الفن للفن والمذهب الرمزي إذ أنَّ هذه المذاهب لا تعنى بالواقع المعيش وإذا صورته فلا تقصد إلى تغييره تغييراً ثائراً كما يريد الواقعيون.

أمَّا الاتجاه الثاني فهو الاتجاه الواقعي الذي لم ينشأ فجأة بل كانت له بذور في الأدب والنقد ومظهرها ربط الأدب بالواقع أو بالغاية في صورة من الصور، فقد ارتبط الأدب بغاية خلقية مباشرة عند أفلاطون وغير مباشرة عند أرسطو [15].

وفي العصر الحديث اتجهت الفلسفات نحو الواقع واتخذت لذلك صوراً وأشكال مختلفة فكانت الفلسفة الاجتماعية أو الاشتراكية التي تعنى بإصلاح المجتمع لإسعاد الفرد ثم الفلسفة الوضعية والتجريبية ثم الفلسفة الماديَّة التي تجعل من الفرد صدًى ونتيجة لعوامل مادية وأخيراً الفلسفة الوجودية.

ولعل الفلسفة الاجتماعية والتي كانت بقيادة " سان سيمون " في ستين وسبعمائة وألف حتى العام خمسة وعشرين وثمانمائة – واتباعه في المجتمع – ذات صلة وثيقة بتوجيه الفن وجهه اجتماعية وتدور فلسفتهم حول مصير الإنسان وفي علاقته بأخيه الإنسان ثم بالعالم– وهم يرمون إلى القضاء على الأثر في الفرد.

ويعتقد علماء الفلسفة الاجتماعية أن العدالة ليست خلقاً مثالياً يصنعه الإنسان ولكنها وليدة المجتمع ومظهرها في المجتمع التبادل المبني على المساواة بين الناس وهي في الفرد مبدأ الفكرة وصورتها وهي الغاية في الوجود والمعرفة.

وهم يرون أن الأدب يجب أن يخدم المجتمع بما يقدمه من مبادئ [16]، وتأثر الأدب بالفلسفة الوضعية أو التجريبية وموجز قضاياه أنَّ المعرفة المثمرة هي معرفة الحقائق وحدها وأنَّ العلوم التجريبية هي التي تمدنا بالمعارف اليقينية وأنَّ الفكر الإنساني لا يستطيع أن يعتصم من الخطأ في الفلسفة والعلوم إلا بعكوفه الدائم على التجربة وبتخليه عن كل أفكاره الذاتية السابقة وأنَّ الأشياء في ذاتها لا يمكن إدراكها ، والفكرة لا نستطيع إدراك شيء منها سوى العلاقات ثم القوانين التي تخضع لها العلاقات [17]

إن الفلسفة الواقعية اتجهت إلى فهم العمل الأدبي من خلال اتجاهين : الأول اتجاه الشرح والتفسير لتراث الإنسان الأدبي في الماضي ، والثاني ، تقويم وتوجيه الأدب المعاصر .

([13]) المقري (1922م) المصباح المنير، مادة (ذات) ، ط5، مطبعة الأميرية ، القاهرة ، ص189.

([14]) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ذات)، مرجع سابق، ص1478.

([15]) محمد غنيمي هلال (1973م) النقد الأدبي الحديث ، دار الثقافة، دار العودة ، بيروت، لبنان، ص26

([16]) محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث، مرجع سابق، ص328

([17]) المرجع السابق ، ص327

ولعلَّ إعجاب الفلاسفة بالعبقريات الأدبيَّة كانت من منطلق أن الأدب عمل من الأعمال التي تظل في خدمة الإنسانيَّة وتجدد قيمة من القيم من خلال المجتمع.

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا أن الإتجاهات الفلسفية لها تأثيرات بالغة في الأدب والنقد معاً ، وعلى هذا فإنَّ الأدب في أبسط صوره يُعنى بحياة الشاعر وحياة المجتمع من حوله إذ يهدف إلى تقوية دعائم الحياة ونقل الواقع إلى عالم الشعر أو النثر.

الذات في علم النفس:

يعتقد كثير من علماء النفس ومنظري الشخصية أن أفضل السبل إلى فهم الإنسان والتعامل معه هو اعتباره " كلاً منظماً" وليس مجموعة أجزاء ويُعبِّرُ مفهوم الذات تعبيراً صادقاً عن هذا الاتجاه ومفهوم الذات من الأبعاد المهمة في الشخصية فقد اهتمَّ بدراسته عدد من علماء النفس ، ومنهم ، (وليم جيمس) الذي عَرَّفَ الذات بأنها (المجموع الكلي لكل ما يستطيع الإنسان أن يدعي أنه له جسده وسماته وقدراته ومشكلاته المادية وأسرته ، أصدقاؤه ، وأعداؤه ، ومهنته ، وهواياته وغير ذلك. [18]

ويقصد بالذات أيضاً : الاتجاهات والأحكام والقيم التي يحملها الفرد بالنسبة لسلوكه وقدراته وجسمه وقيمه ، لقد تباينت الدراسات والبحوث حول مفهوم الذات ويمكن تصنيفها كما يلي:

دراسات وصفت الذات من حيث تكوين مفهومها وأخرى اهتمت بالمتغيرات والمميزات التي تؤثر على تطور مفهوم الذات ومنها ما رَكّزَ على علاقة المفهوم الذاتي بالسلوك حيث يدخل المفهوم في عملية السلوك فيؤثر السلوك في الناتج.

وآخر هذه الدراسات حاول الاستبصار في مفهوم الذات أي مقدار الاتفاق بين التقدير الذاتي وتقدير الآخرين بالنسبة لسمات معينة في الفرد.

وهنالك تعريف آخر للذات قال به: (جورج هربرت ميد) وهو أنها تكوين اجتماعي ينشأ في ظروف اجتماعية حيث توجد اتصالات اجتماعية ويري من الممكن أن تنشأ للإنسان ذوات عِدَّة كل منها : مجموعة مكتسبة من مختلف الجماعات الاجتماعية[19] وتحدث " سيموندس " عن الذات فقال : هي الأساليب التي بها يستجيب الفرد لنفسه وهناك تفاعل بين الذات والأنا (مجموعة من العمليات النفسية). [20]

وهنالك بعض الكتاب يعطي لمفهوم الذات أهمية أكبر من الأبعاد الأخرى في الشخصية إذ يعتبر هؤلاء أن الذات هي العامل الأهم في التأثير على السلوك فالذات هي عبارة عن بناء معرفي يتكون من أفكار الإنسان عن نواحي وجوده المتعددة حيث إن مفهومات الشخص عن جسده تدعي (الذات البدنية) ومفاهيمه عن أعضائه الحسية وبنائه العضلي تُدعى (الذات المرسلة المستقبلة) ومفاهيمه عن سلوكه الاجتماعي تُدعى (الذات الاجتماعية) وهذه الذوات تحدث بالترتيب لدى الشخص ومنها تتكون الذات الكلية.[21]

ومن خلال ما تقدم يتبين للباحث أن علماء النفس قد اجتهدوا في سبر أغوار الذات وفهم كنهها فسلكوا أكثر من طريق لتعريف الذات ومعرفة إسرارها فكان هذا التعدُّد والتنوع في التعريفات والمفاهيم التي تتحدث عن الذات الإنسانية.

الذات في علم الاجتماع :

العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة قديمة جداً ولعلَّ هذا ما جعل بين الأدب وعلم الاجتماع وشائج قوية إلى حد تخصيص فرع من فروع علم الاجتماع لدراسة الظاهرة الأدبية سمي بعلم الاجتماع الأدبي .

([18]) رمضان محمد القذافي (1993م) الشخصية" بنغازي ، دار الكتب الوطنية ، ص172.

([19]) إبراهيم أحمد أبو زيد (1987م) سيكولوجية الذات والتوافق ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية، ص76

([20]) فيصل عباس(1994م) التحليل النفسي للشخصية، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت ، ص34.

([21]) فادية عمر خولاني(1997م) دراسات الشخصية العربية، مطبعة ومكتبة الإشعاع الفنية ، ص23.

فالشاعر عضو في المجتمع منغمس في الوضع الاجتماعي متأثر بالبيئة الاجتماعية ويختلف هذا التأثر من عصر إلى آخر ومن مكان إلى آخر بما للزمان والمكان والثقافة وعناصر الوراثة أو الخصوصيات التي يتميز بها هذا المجتمع أو ذاك استناداً على المعتقد الذي يؤمن به أو الفلسفة الإيحائية التي يسير عليها كل هذه العناصر تعد من المؤثرات الاجتماعية التي تثري الذات الشاعرة : لأنها تولد في المجتمع وتعبر عن حياة المجتمع بكل تفاصيلها ، وتساهم في تطور المجتمع وقديماً كان العرب يفرحون أشدَّ الفرح حين يقدم مولود جديد للحياة .

وخلاصة القول : هنالك علاقة قائمة راسخة بين الذات والمجتمع على ساس فهم وإدراك الصلة بينهما ، هذا ويمكن للنقاد الاستعانة بالمجتمع وتياراته لفهم الذات الشاعرة أو الاستعانة بالشاعر لقراءة أحوال المجتمع الذي عاش فيه وعبَّر عن حاجته أصدق تعبير.

الذاتية عند النُقاد المعاصرين :

ولعلَّ كثيراً مِن النقاد المعاصرين تحدَّث عن (الذاتِيَّة) فكان حديثهم متفاوتاً في فهم هذا المصطلح ومِن هؤلاء مثلاً: محمد خلف الله الذي قال : (إنَّ الذات – الذاتِيَّة – الذاتيّ) كلمة لاتينية الأصل والنشأة ، إذا عمّ استعمالها في مجال الدراسات الغربية، مِن فلسفة وأخلاق ونفس، ونقد أدبي وغيرها مِن الدراسات ، وكان ذلك في منتصف القرن التاسع عشر ، ثم استخدمها من بعد ذلك النقاد الشرقيون في القرن الماضي والحاضر). [22]

لقد تنوعت معاني هذه الكلمة بتنوع صيغها ومواضع استعمالها فمن معاني كلمة : Subject الذات والشخص: القوة المُفكِّرة ؛ ومِن معاني Object : الشيء أو الموضوع الذي يقع عليه إدراك العقل وتفكيره ، ومِن هذين المعنيين أشتُقت هذه التسمية subjective ومعناها المنسوب إلى الموضوع أو الشيء الذي يقع عليه التفكير.[23]

وتحدث محمد زكي العشماوي : عن الذاتِيَّة في الفن عموماً فقال : (إنها نتيجة ما في الذات من تباين وفردية، بل إنَّ قيمة العمل الأدبي ترتفع وتسمو كُلَّما كان هذا التباين وتلك الفردية مظهرين واضحين في النقد الأدبي) [24]

وهناك اتجاه نقدي آخر يرى أنَّ الذاتية : هي تجربة شخصية منفتحة على الإنسانية ويمثل هذا الاتجاه محمد صادق عفيفي الذي يقول : (إنَّ الذاتِيَّة هي تجربة منفتحة على الإنسانية بمعنى آخر : الشاعر عندما يعاني هذه التجربة الذاتِيَّة ليس معنى ذلك أنَّها موثوقة بحبال الشاعر ومحكومة بمنطقه وعواطفه – كلا؛ لأنَّ القارئ يرى فيها ذاته ويتجاوب معها ، وكأنَّما صاحب التجربة لم يفكر في نفسه أو يكشف عن ذاته فحسب بل يعبِّرُ أيضاً عن تجربة الآخرين وينقلها بأمانة ودقة ، ومِن ثمَّ فإنَّ التجربة ذاتيَّة في مصدرها ولكنَّها ذات نزعة إنسانية عامة).[25]

ويمضي في قوله: (إن التجربة الذاتية يمثلها الشاعر برؤيته أو سماعه لها على بساط الحياة ، فهو يستوحيها ، ويتحد معها عن طريق التعاطف ، ثمَّ ينشرها وجداناً وفكراً، ومن هنا يتضح جلياً أنَّ الذاتِيَّة تصدر عن وجدان خالص تحمل في طياتها المقومات الموضوعيَّة فالتعبير ذاتِيَّ النشأة ولكنَّه موضوعي العاقبة).[26]

إذن نخلص مِن هذا إلى أنَّ الذاتية تعني : موقف الشاعر مِن الحياة والكون موقفاً يجعله في حالة تواصل بين الداخل والخارج أو ما يُسمى بالذات والموضوع هذا التواصل الذي يستوحي منه تجربته الشعرية والتي تتأثر بوجدانه وفكره ويرى محمد غنيمي هلال : (أنَّ التجربة الذاتية المحضة هي التي يقصد فيها الشاعر إلى التأمُّل

([22]) محمد خلف الله(1947م) من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ، ص35.

([23]) المرجع السابق ، ص36.

([24]) محمد زكي العشماوي، مرجع سابق، ص16.

([25]) محمد الصادق عفيفي (1978م) النقد التطبيقي ، والموازنات، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ص62.

([26]) المرجع السابق ، ص65

الذاتي أو التأمل الذاتي الاجتماعي وليس معنى هذا أنَّ التجربة الذاتية مقصورة في حدود المترجم عنها وإنَّما هي إنسانية بطبيعتها فالشاعر ذاتي موضوعي؛ لأنَّه جعل ذاته موضوعيّة وكأنَّه يتأملها في مرآة ، فالتعبير ذاتِيَّ في نشأته ، ولكنه موضوعي في عاقبته).[27]

ولمَّا كان القرن العشرون أُطلِقَ للذات العنان فاصطدمت بنفسها وبالعالم الخارجي فنمت الذات وقوي الشعور بها فزادت محنتها، وقد حاول الشعراء في هذا العصر أن يكونوا مخلصين لذواتهم وعند ذاك اهتزَّ أمامهم النظام الخارجي واهتزَّت القيم والمعايير التقليدية ومن ثمَّ تولدت مشاعر الغربة والضياع ورُبمَّا جاهد بعضهم في سبيل أن يخلق المعادلة بين الذات والوجود ، ولكنَّ جهداً كهذا لابدَّ أن يصيب الذات بالتمزق ، فلن تتحقق هذه المعادلة إلا على حساب الذات والوجود معاً.[28]

فالذات في الأدب العربي الحديث أحست بالغربة والضياع نتيجة للصراع العنيف بين القديم والحديث بين مستجدات العصر فحاول الشاعر أن يوازن بين الماضي والحاضر ولكنه اصطدم بالمفارقات العجيبة بين ماضيه وحاضره فتولَّد الإحساس بالغربة والضياع والحزن .

الذاتية عند شعراء مدرسة الإحياء :

لقد أفاض دارسو الأدب والنقد في الحديث عن حركة الإحياء في الشعر العربي وأسبابها الفكرية والاجتماعية والسياسية والحضارية بوجه عام، ولست بصدد الحديث عن تلك الحركة بكل تفصيلاتها ، بل أودُّ تبيين الجوانب الذاتية عند شعراء هذه الحركة ويأتي في مقدمتهم محمود سامي البارودي رائد هذه المدرسة وواضع اللبنة الأساسية فيها ، وسأتحدث في المساحة التالية عن الذاتية في شعره.

إنَّ حياة البارودي كانت مكتظة بالتجارب والأحداث التي صقلت نفسه (ذاته) وزودته بذخيرة ذاتِيّة شاعت في شعره ، ومن ذلك: مشاركته في حرب جزيرة كريت وفي حرب البلقان وكذلك تصديه لدور قيادي بارز في الثورة العُرابية وتجربة المنفي التي تمخضت عن فشل الثورة من أعمق التجارب ، ومن أشدِّ المحن التى عاناها تجربة منفاه إلى جزيرة سنرنديب بشبه القارة الهندية فترة طويلة وما حلَّ بأُسرته من مآسي كل ذلك كان له أثر ملموس في شعره الذي طغت عليه النبرة الذاتية الحزينة .

فمثلاً نراه يُعبِّر عن همومه الذاتِيَّة حينما عاش منفياً وتكالبت عليه المصائب حين فقد زوجته فقال يرثيها:[29]

أيد المنون! قدحت أيَّ زنـــاد	وأطرت أيَّة شعلةٍ بفـــــؤادي
أوهنت عزمي وهو حملةُ فليقٍ	وحطمت عُودي وهو رُمحُ طِرادي
لم أدرِ هل خطبٌ ألمَّ بساحتي	فأناخ أَمْ سَهْمٌ أصاب ســـوادي
أبليتِنيَّ الحسراتُ حتى لم يكد	جسمي يلوح لأعيُنِ العُـــوَّادِ
يا دهرُ فيما فجعتني بحليلة	كانت خلاصة عُدتي وعتـادي
إن كنت لا ترحم ضناي لبُعْدِها	أفلا رحمت من الأسى أولادي
أفردتهُنَّ فلم ينمن توجـــعاً	قرحى العيون رواجفَ الأكبادِ
ألقين دُرَّ عقودهنَّ ولبسنَ من	دُرِّ الدموع قلائد الأجيـــاد
لو كان هذا الدهرُ يقبل فدية	بالنفس عنك لكنت أول فادي
لكنَّها الأقدار ليس بناجع	فيها سوى التسليم والإخلاد

ومن الأبيات التي يتحدث فيها البارودي ، عن همومه الذاتية قوله: [30]

سواي بتحنان الأغاريد يطربُ	وغيري باللذات يلهو ويلـعبُ
وما أنا مِمَّنْ تأسرُ الخمرُ لُبَّـهُ	ويملك سمعيه اليراعُ المُثقَّـبُ
ولكن أخوهم إذا ما ترجـحتْ	به سورةٌ نحو العلا راح يدأبُ
نضى النوم عن عينيه نفسٌ أبيةٌ	لها بين أطراف الأسنة مـطلبُ
بُعيد مناط الهمِّ فالعْربُ مُشرِقٌ	إذا ما رمى عينيه والشرق مَغرِبُ
ومن تكن العلياءُ همَّةَ نفســهِ	فكلُّ الذي يلقاه فيـها مُحبَّـبُ
إذا أنا لم أعطِ المكارم حقَّـهَا	فلا عزَّني خالٌ ولا ضـــمني أبُ
أسير على نهج يرى الناسُ غيره	لكل امرئٍ فيما يـحاول مـــذهبُ

(27) محمد غنيمي هلال، النقد الأدبـــي الحـــديث ، مرجـــع ســـابق، ص361

(28) عز الدين إسماعيل(1994م) الشعر العربي المعاصر، قضـــاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، ط5، المكتبـــة الأكاديميـــة ، القـــاهرة، ص307 .

(29) البارودي(1998م) ديوان البارودي ، تحقيق: علـــي الجـــارم ، محمد شفيق معروف،ج1، دار العودة، بيروت، ص153–154.

(30) المرجع السابق، ص55.

وتظهر شخصية البارودي واضحة جلية في حِكَمِهِ فهو يُقرَّرُ أنَّ له نهجاً قد يختلف مع الناس بشأنه ، ولكن ذلك لا يثنيه من التمسك به ، فلكل إنسان طريقته ومنهاجه الخاص ، وهنا يتضح الربط بين الحكمة والإحساس بالذات أو ما يُسمى بالربط بين العام والخاص أو الذاتي والموضوعيِّ الأمر الذي دفع العقاد إلى الإشارة إلى هذه الخاصية في شعر البارودي فهو يرى أن شخصية البارودي تظهر من خلال شعره[31] لقد أضاف البارودي إلى الشعر العربي عنصراً جديداً كان مفقوداً لقرون طويلة ألا وهو عنصر الذاتية .

ولا يفتأ البارودي يتحدث في شعره عن غربته مازجاً بين صورتها المادية وآلامها النفسية أحياناً حتى تغدو غربة روحية خالصة أي غربة ذاتية خالصة ، فيقول متحدثاً عن غربته وهو يخوض الحرب في جزيرة كريت: [32]

أراك الحمي ، شوقي إليك شديد ... وصبري ونوحي في هواك شريد
مضى زمنٌ لم يأتني عنك قادمٌ ... ببشرى ، ولم يعطف عليَّ بريدُ

وحيدٌ مِن الخِلان في أرض غربة ... ألا كلُّ مَنْ يبقى الوفاء وحيدُ!
فهل لغريب طوَّحته يد النوى ... رجوعٌ ؟ وهل للحائمات ورودُ؟
وهل زمنٌ ولَّى وعيش تقيضت ... نضارته بعد الذهاب يعودُ؟

وقد كان البارودي يلتمس للتعبير عن مشاعره الذاتيَّة صوراً من تجارب الشعراء الأقدمين عبَّرُوا بها عن الوجد والغربة والفقد، وحنُّوا فيها إلى مواطنهم الأولي بنقائها وبساطتها وذكرياتها الشجية والسعيدة على السواء ومن ذلك قوله: [33]

ياحبَّذا جرعةٌ من ماء محنية ... وضجةٌ فوق بردِ الرمل بالقاعِ
ونسمة كشميمِ الخُلْدِ قد حملت ... ريَّا الأزاهيرِ مِن ميثٍ وأجْرَاعِ

إنَّ إلحاح المحنة على وجدان البارودي كان يتسلل إلى مطالع قصائده ، فيشيع فيها معاني وصوراً تُعبِّرُ تعبيراً صريحاً عن محنة الذات ومنها قوله: [34]

لكلِّ دمع جرى من مقلةٍ سببُ ... فكيف يملك دمع العين مُكتئبُ
لولا مكابدةُ الأشواق ما دمعت ... عين ،ولابات قلب في الحشا يحبُّ
فيا أخا العذلِ، لا تعجل بلائمة ... عليَّ، فالحبُّ سلطان له الغلب

وفي القصيدة أبيات أخرى لعلَّها أبلغ في الإفصاح عن ذلك الأسلوب الفني والنفسي الذي امتزجت فيه المعاني الشعرية بالتجربة الذاتية وصورها ، إذ يقول فيها:[35]

وعاد ظني عليلاً بعد صحته ... والظنُ يبعد أحياناً ويقتربُ
فيا سُراةَ الحمي ، ما بال نصرتكم ... ضاقت عليَّ ، وأنتم سادةٌ نُجُبُ!
أضعتموني وكانت لي بكم ثقة ... متى خفرتم ذمام العهد ياعُربُ؟
أليس في الحقِّ أن يلقى النزيل بكم ... أمناً ، إذا خاف أن ينتابه العَطَبُ
فكيف يسلبني قلبي ، بلا ترةٍ ... فتاةُ خدر لها في الحيِّ مُنتسبُ

ويقول عبد القادر القط: (إنَّ شعر البارودي يُعدُّ إرهاصاً للحركة الرومانسية ؛ لأنَّهُ ردَّ للتجربة الشعرية عنصرها الذاتي الذي افتقدته طويلاً). [36]

لقد كان الشعر عند البارودي تعبيراً عن شعور صادق ورغبة ذاتية ودوافع متصلة بنفسه أولاً وقبل أيَّ شيء آخر[37] فهاهو يقول في إحدى قصائده :[38]

تكلمتُ كالماضين ... به عادةُ الإنسان
قبلي بما جرت ... أن يتكلما
فلا يعتمدني ... فلابدَّ لابن الأيك
بالإساءةُ غافلٌ ... أن يترنما

هذه الأبيات السابقة تؤكد ما قاله محمد مصطفى هدَّارة (ويُعدُّ البارودي رائد هذا الاتجاه الذي أعاد إلى الشعر الأصيل نبض الحياة من جديد ، فقد استطاع أن يرتفع ببنائه الشعري ليحاكي نماذج صفوة شعراء العرب ، كما

([31]) العقاد، عباس محمود(1950م) شعراء مصر بيئاتهم في الجيل الماضي، توثيق القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ص135

([32]) البارودي(1954م) ديوان البارودي، الجزء الثاني، مطبعة الأميرية، مصر، ص227

([33]) ديوان البارودي ، الجزء الأول ، مرجع سابق، ص72.

([34]) ديوان البارودي ، الجزء الأول ، مرجع سابق، ص55.

([35]) المرجع السابق ، ص73.

([36]) عبد القادر القط (1981م) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ط2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ص32.

([37]) عبد المحسن طه بدر (1991م) التطوُّر والتجديد في الشعر المصري الحديث، الهيئة العامة للكتب، القاهرة، ص142.

([38]) ديوان البارودي ، الجزء الرابع ، ص560.

استطاع في الوقت نفسه أن يُعبَّر عن ذاته وتجارب حياته)[39] ويقول البارودي في محنة منفاه : [40]

أبيت في غربة لا النفس راضية ... بها ولا المُلتقى من شيعتي كَثَبُ
فلا رفيق تسرُّ النفس طلعته ... وا صديق يرى ما بي فيكتئبُ
ومن عجائب ما لاقيت من زمني ... إني مُنيتُ بخطب أمره عجبُ
لم أقترف زِلّة تُعقني على ما ... أصبحتُ فيه فماذا الويل والحَرَبُ
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ... ذنبٌ أدان به ظلماً وأغترب
أثريت مجداً فلم أعبأ بما سلبت ... أيدي الحوادث منّي فهو مكتسبُ
لا يخفضُ البؤس نفساً وهي عاليةٌ ... ولا يشيد بذكر الخامل النشب

هذا الإحساس الذاتي الذي يتجلى في شعر البارودي مع سموِّ التعبير نجده في مواقف متعددة حتى لو كانت تقليدية في إطارها العام مثل: شعره الغزلي ، وشعره الذي يصف فيه الطبيعة .

من خلال ما تقدم يمكن القول إن البارودي استطاع أن يحافظ على النمط التقليدي للشعر العربي ولكنه في الوقت نفسه عبَّر عن ذاته وعن قضايا عصره، الأمر الذي جعل النقاد وقتذاك يعجبون بشعره على غرار العقاد، وعبد القادر القط، ومحمد حسين هيكل ومحمد مصطفى هدَّارة وغيرهم.

الذاتية عند شعراء مدرسة الديوان :

مدرسة الديوان تمثلت في الشعراء الثلاثة وهم : عبد الرحمن شكري وعباس محمود العقاد وإبراهيم المازني وكان صاحب الفكرة هو عبد الرحمن شكري ، ولهذه المدرسة خصائص عديدة ولكني سأقتصر على الجوانب الذاتية في شعرهم ، وسيكون شعر العقاد ميدان الدراسة فهو يقف من الحياة والكون موقف الثائر الساخط على ما قدر له من قُوى محدودة لا ينهض بعبء ما يريد الوصول إليه من نتائج.[41]

وهاهو يتجرد من الزمان في لحظة خاطفة ويتخطى الهلاك ، فيعبر الحياة والموت اللذين لا يعنيه بعدهما شيء وذلك في قوله حينما زار معبد الكرنك :[42]

وكأني وقد وقفت لديها ... وسقامي يثقلني وشجوني
تُصُبٌ مرَّ بي من الدهر خلساً ... مثل ما مرَّ بالبناء المكين
فتجردتُ فيك روحاً تخطي ... ما وراء الزمان حكم المنون
عبرتني الحياةُ عندك والموت ... فلا شيء بعدها يعنيني
وقفة ثم يأخذ الدهر غدراً ... مِن كلينا وراء هذا السكون

ومن ثم نراه يثور على هذه الدنيا وينقم عليها نقمة شديدة حينما يذهب إلى أنَّ الحياة يقاسيها الإنسان ويتجشمها لا لنفسه ، بل لما تختبر فيه من أمر عظيم أو زهيد وتظهر فيه بأسها ، وفي الوقت نفسه يحسب الحيّ أنَّ جهده لنفسه ومصلحته له لا لسواه ، وهو في ذلك جاهل ؛ لأنّ المرء مسخر في الحياة لخدمة الآخرين .

وهو يتصوَّر أنَّ علاقة الإنسان بالدهر تتمثل في أنَّ القوي يغتال الضعيف على حين أنَّ الدهر لا يبقي الفتى المُغتال ؛ لأنَّ مكائده واحتيالاته تقصر عن الدهر الذي يقهر كلَّ القاهرين من الخلق فيمضون دونما يشعر بهم أحد أو يتأثر بهم شيء ، فيقول:[43]

الناس يغتال القوي ضعيفهم ... والدهر يغتال الفتى المغتالا
قهَّارُ كلِّ القاهرين تقاصر ... عنه مكائد من طغى واحتالا
ذهبوا فما هوت الكواكب بعدهم ... أسفاً وما نَقَصَ الثرى مثقالا

وفي موضع آخر تراه يتحدث في مقطوعة : (نحنُ وزماننا) عن أثر الزمن في نفسه وأن ما يبدو في نفسيته من الجفاء والوحشة إنما هو ظلال الناس فيها وأنَّ نفسه كالمرآة لما يحدث في زمنه حتى إنَّه يُحدِّثُ عن هذا الزمن من اللاشعور أو من حيث يدري ولا يدري على حدِّ تعبيره : [44]

إذا استعصبت نفسي وضاق فجاجها ... ولاحت لمرأي العين كالجبل الوعر
فلا تنكروا منها جفاء ووحشة ... ولا ترجموها بالقبيح من الكبر

([39]) محمد مصطفي هدَّارة (1990م) دراسات في الأدب العربي الحديث، ط1، دار العلوم العربية ، بيروت ، لبنان، ص20.

([40]) ديوان البارودي ، الجزء الأول ، مرجع سابق، ص74.

([41]) عبد الحي دياب، (1968م) النزعة الإنسانية في شعر العقاد، دار النهضة العربية ، بيروت، ص3.

([42]) عباس العقاد (1976م) ديوان العقاد، ج2، مطبعة وحدة الصيانة والانتاج، اسوان ، مصر، ص270

([43]) المرجع السابق، ص145.

([44]) ديوان العقاد(أشباح الأصيل) ، مرجع سابق، ص260.

فتلك ظلال الناس فيها ودونها طبائع كالماء النمير إذا يجري ما أبقت الدنيا لمغتبط على المدامع أجفان المساكين
وإنَّا لمرآةٌ لما في زماننا نحدث عنه حيث ندري ولا ندري أسوان أسوان لا صفو الحياة ولا عجائب القدر المكنون تعنيني
أصاحبُ الدهر لا قلب يسعدني على الزمان ولا خِلٌّ فيأسوني
يديك فامحُ ضني يادهرُ في كبدي فلستَ تمحوه إلا حين تمحوني

عندما أراد العقاد أن يدعو مواطنيه إلى العزة والصمود والاستقامة والكرامة لم يقف موقف الواعظ، ولكنه وقف موقف الأديب الثائر فصور مجتمعهُ، وكأنَّه متشائم من الأوضاع التي يراها فقال في قصيدة أسماها (زماننا):[45]

فشت الجهالة واستفاض المنكر فالحق يهمسُ والضلالةُ تجهر
والصدق يسري في الظلام ملثماً ويسير في الصبح الرياء فيسفر
إنَّا في زمن كأنَّ كباره بسوى الكبائر شأنها لا يكبرُ
من كلِّ ذي وجه لو أن صفاته تندى لكان من الفضيحة يقطرُ
بئس الزمانُ لقد حسبت هواءه دنساً وأن بحاره لا تطهرُ
وكأنَّ كُلَّ الطيبات يردها فيه إلى شرِّ الأمور مدبر
سبق اللئام إلى ذراه فقهقهوا إنَّ القرود لبالتسلق أخبرُ
ما نِيلَ فيه مطلب إلا له ثمن مِن العرض الوفير مقدرُ
وبقدر ما بذل امرؤٌ مِن قدره يُجزى فأكبر مَنْ تراه الأصغر

وننتقل من الثورة في شعر العقاد إلى التشاؤم حيثُ إنَّه يذكر بإلحاح ما يؤكد إحساسه بالتشاؤم والحزن ، وهو في كلِّ هذه المحاور ينطلق مِن فلسفة رومانسية يُكشف عنها شعر جماعة الديوان، ويؤكدها العقاد دوماً في كلِّ ما يكتب فها هو يناجي رفيق دربه في الشعر عبد الرحمن شكري قائلاً:[46]

ستغرب شمسُ هذا العمر يوماً ويغمض ناظري ليل الحِمام
فهل يسري إلى قبري خيالٌ مِن الدنيا بأنباء الأنامِ
ويمسي طيفُ مَنْ أهوى سَميري ويُؤنسُ وحشتي ترجيعُ هام
وأحلمُ بالزواهرِ دائراتٍ وبالزَّهر المُنوَّر والغمامِ

ويستمرُّ تأمُّل العقاد الحزين وهو تأمل أقرب إلى التشاؤم المتفلسف في قصيدة له بعنوان (نفثة) : [47]

ظمآن ظمآن لا صَوْبُ الغمام ولا عَذْبُ المُدام ولا النداءُ ترويني
حيران حيران لا نجم السماء ولا معالم الأرض في الغمَّاء تُهديني
يقظان يقظان لا طيبُ الرُّقاد يدا ويني ولا سَمَرُ السُّمَّار يُلهيني
غصَّانُ غصَّانُ لا الأوجاع تبليني ولا الكوارث والأشجانُ تبكيني
شعري دُموعي وما بالشعر مِن عوض عن الدموع كفاها جَفْنُ محزون

ويُعلِّقُ محمد عبد المنعم خفاجي عن هذه القصيدة بقوله :(وهذه القصيدة تُعدُّ بحقٍّ من أروع قصائد العقاد فهي نفثةٌ من نفثاته ، وعصارةُ حبِّه، لا ومرآة وضاءة لنفسه (أي ذاته) الرقيقة الحزينة القلقة).[48]

ومن قصائده التي يتحدث فيها عن التشاؤم ، قصيدته الرائعة التي جعل فيها الحوار بين المعري وابنه ، الابن يريد أن يخرج إلى الوجود ليستمتع بالحياة وما فيها والأب يرفض ذلك ويشرح له أسباب رفضه وإعراضه فيقول فيها:[49]

شـــرَّها يابنـــي شرٌ ثقيـــل
خيـــرها يابنـــي خير قليـــل
أهلـــها يابنـــي أهل حقـــود
زعمـــوها إلـــى الخلود تؤدي
ما رأينا سـوى فنـــاء ولـحد
فيه مـــود على تجاليد مودي
قف بباب الحيـــاة لا تدخلنها
واعتصم يابني ما استطعت منها
سوف ألقاك فانتظر بالوصـــيد

هكذا أقنع المعري الوليد فتنحى عن الحياة بعيداً والتقى الشيخ وابنه في اللِّحود.

([45]) ديوان العقاد ،الجزء الأول، (يقظة الصباح)، مرجع سابق، ص113

([46]) المرجع السابق، ص101

([47]) ديوان العقاد ،الجزء الثاني ، (وهج الظهيرة) ، مرجع سابق، ص198.

([48]) محمد عبد المنعم خفاجي ، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه ، د.ن، ص44.

([49]) ديوان العقاد ،الجزء الثاني، (وهج الظهيرة) ، مرجع سابق، ص189، 190.

فالعقاد جعل هذه القصيدة وغيرها من قصائده تعبيراً عمَّا تحسُّ به ذاته وهو يقصد بهذا التشاؤم كلِّه إلى إثارة غريزة الخير في الإنسان عن طريق تنفيره من الشرِّ وتصويره له. ومن خلال ما تقدم نخلص إلى أنه من خلال نظرية الشعر الوجداني أي الشعر يفصح عن الوجدان عند هؤلاء الشعراء الثلاثة انبعثت الدعوة على أن يكون الشعر تعبيراً عن ذات الشاعر وشخصيته .

الذاتية عند شعراء المَهْجَر :

مدرسة المهجر هي التي قامت على أيدي الأدباء العرب الذين هاجروا من بلاد الشام إلى أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية وكونوا فيها جمعيات وروابط أدبية وأخرجوا صحفاً ومجلات أدبية.

فالشعر المهجري له خصائص عديدة من حيث شكله ومضمونه غير أني سأتحدث عن أحد شعرائهم الذي كان مشغولاً بأحواله وخواطره الذاتية حتى حَوَّلَ أفكاره في الوجود إلى تأملات نفسية ذاتية فقد ظلَّ في ديوانه : (همس الجفون) يصور دواخله ومشاعره إزاء الكون ومشاكله.

وإذا راجعنا الديوان (همس الجفون) وجدناه كاسمه بكل ما في ذاته وبكل أحاسيسه، همس يفيض ، ليس فيه صياح ولا عويل، تحس ذلك في ألفاظه وموسيقاه فألفاظه خفيفة، وموسيقاه رقيقة النبرات كالنسيم، والقصيدة عنده كثيراً ما تنتقل من لحن إلى لحن ومن قافية إلى قافية ولكن في هدوء فليس في كيان شعره عنف ؛ لأنَّ نفسه (ذاته) لا تحتوي على أيِّ عنف وهو في ذلك يختلف عن إيليا الثائر كما يختلف عن جبران المتمرد .

إنَّ نفس ميخائيل هادئة ، وكل ما يصدر عنها هادئ ، ليس فيه حِدَّة ولا غضب إنَّه في الحياة راضياً ناعماً بكلِّ ما قسمته له المقادير والأيام ويتجلى هذا في قصيدته: (ذمُّك الأيام): [50]

ذمُّك الأيامَ لا ينفعك	فهي لا أذْن لـها تسمـعك
لا ولا عينٌ ترى عقرباً	في دياجير الأسى تلسـعك
لا ولا قلبٌ يرق وإن	جفَّ مِن طول البكا مدمعك

وهو لذلك لا يئن ولا يلهث ألماً مِمَّا يصيبه مِن الأيام و الزمان ، فهو يرضى بحظه المقسوم ، وكأنه قد آمن بأن ذلك نظام الحياة وعليه أن يندمج فيه فلا يتمرد ولا يرتد إلى رغباته الجسدية وإنما يخضع وينيب ، ولم يفكر أبداً في زوال الشرِّ مِن الدنيا ، فهو يرى أن الدنيا بنيت على الخير والشرِّ معاً وأنه، إن سقط أحدهما منها سقط بنيانها وتداعت أركانه لذلك راح يصور الخير والشر في قصيدته : (الخير والشر) حيث قال : [51]

سمعتُ في حُلْمي ويا للعـجب	سمعت شيطاناً يناجي ملاكْ
يقول : أي بل ألف إي يا أخي	لولا جحيمى أين كانت سماك
أليس أنَّا تـوأمان استـوى	سرُّ البقا فينا وسـرُّ الهـلاك
ألم نُصَغ مِن جـوهرٍ واحد	إن ينسن الناس أتنسى أخاك

❖❖❖

فأطرق ابن النور مسترجعاً	في نفسه ذكرى زمان قـديمْ
واغرورقت عيناه لما انحنى	مستغفراً وعانق ابن الجحيم
وقال : إى بل ألف إى يا أخي	مِن نارك الحرّى أتاني النعيم
وحلَّق الإثنان جـنباً إلى	جنب وضاعا بين وَشْيِ السديم

فهو يرى الخير والشر أخوين ، بل توأماً واحداً ، فهما سرُّ الوجود ، صيغا من جوهر متحد وإن اختلفا شيطاناً ، وملاكاً وظلاماً ونوراً وجحيماً ونعيماً ، بل لولا نار الشَّر ما تمت للخير صفات نعيمه ولا شعر الإنسان بهذا النعيم، فهو الذي يعِّرفه به حين يجتاز بنيران آلامه ، ولو أنَّ العالم كان خيراً خالصاً ما عرفنا قيمة الخير ولا نفعه وفائدته ولبطل الشعور به وبطلت الفرحة والسرور ، بل لبطل نظام الدنيا وعَدِمَ معانيه وحقائقه ، وما الدنيا إلا نافع وضارٌّ، ومكروه وسار، وممتع ومؤلم، ومؤنس وموحش، وبذلك كله يتم للإنسان تمييزه وصلاحه ، حين يعرف الشرَّ وأذاه فتركه إلى الخير ونفعه ، فالشر والخير أخوان وُجِدَا مع ابتداء الدنيا ويستمران إلى انقضائها لذلك يتصافحان في نهاية القصيدة ويحلقان في السديم أو

([50]) ميخائيل نعيمة(2004م) ديوان همس الجفون، ط6، بيـروت ، لبنان ، ص76–79.

([51]) المرجع السابق، ص62.

في الوجود ، فهما جوهره وكيانه ، ويردد نعيمة الفكرة نفسها في قصيدته ، (العراك): [52]

دخل الشيطان قلبـــي فرأى فيه مـلاك
وبلمح الطرف ما بينهما اشتـدَّ العـــراك
ذا يقول البيت بيـــتي فيعيد القولَ ذاك
وأنا أشهد ما يـــري ولا أبـــدي حِراك

❖❖❖

وإلى اليوم أراني في شكوك وارتباك
لست أدري أرجيمٌ في فؤادي أم ملاك

فالشرُّ والخير هنا ليس في الدنيا مِن حوله ، وإنِّما هما في قلبه يجد كرب الشر حيناً وأنس الخير حيناً آخر، وهو موزع بينهما، إنهما نظام وجوده ، كما أنهما نظام الوجود كله تارة يستسلم للشرِّ وشيطانه وتارة يستسلم للخير و ملاكه، بل إنَّهما ليعتركان في داخله ، يقوده هذا مرة وذاك مرة وهو ماضٍ في طريقه، طريق الحياة التي قامت على حافتيه أعلامهما وانتقلت صورهما.

هذا اليقين بنظام الحياة وسرِّها قد تمرُّ به لحظات شكٍّ ، ولكنها لحظات خاطفة، سرعان ما ينطفيء وميضها ، ومع ذلك فإنَّها تخلف وراءها صورة نفسه حين اعترته، على نحو ما يرى في قصيدته : (أنشودة) والتي فيها يشكو جروحه مِن الحياة والناس:[53]

ألقيـــــتُ دَلْـــــوي بـــين الـــدِّلاءِ
وقلـــــتُ علِّـــــي أُحظـــى بمـــاء
فعـــــاد دَلْـــــوي مـــع الـــدِّلاءِ
ولـــــيس فيـــــه إلا رجـــــائي

❖❖❖

أرســـــلتُ طـــــرفي بـــين النجـــوم
وقلـــــتُ علِّـــــي أنسَـــى همـــومي
فطـــــاف طـــــرفي بـــين النجـــوم
ولم يشـــــاهد ســـوى غمـــومي

❖❖❖

قـــــدمت حُـــــبي لمبغضـــــيًّا
لقـــــاء مـــــا قـــــد جَنـــــوا عَلَيَّـــــا
فكـــــان حظـــــي مِـــــن مبغضـــــيًّا
أن عـــــاد حـــــبي بغضـــــاً إليَّـــــا

فهو يشكو مِن آماله الذاتية ، ومِن همومه وغمومه ومِن الناس ، إذ يقدم لهم حبَّه، ولا يقدمون له إلا الكره والبغض ، ولكن لا يلبث في نهاية القصيدة أن يطلب إلى روحه وهي تئن بهذه المشاعر أن تغني ولا تنوح ، فتلك الآلام كلها مِن وجوه الحياة ، بل هي مِن ألحان العمر وأغانيه، وإذا تمردنا بسببها تمردنا على نظام العيش المسخر لنا.

إننا لم نخلق لنتذوق ثمار الخير الحلوة وحدها ، بل خلقنا لنتذوق ثمار الشرِّ المُرَّة البغيضة معها ، وبهذا تكتمل الحياة ، بل هي لا تكتمل إلا إذا رضينا بآلام العيش وأوزاره ، وإنَّها لتتراءى له في قصيدة : (صدى الأجراس) شكوكاً تهتف به وتصيح ، و كأنَّها تريد أن تُحيل ذكريات الصبا المرحة إلى دموعاً ، وهي نفسها التي تهتف به في قصيدة : (ترنيمة الرياح): [54]

أتـــــردَّى رداء المنـــــــون وأداوي الأســـــى بـــــــالظنونْ
كـل فكـري سـوادْ كـل قلـبي سُـهادْ
كـل دَرْبي قتـاد كـلُّ عيشـي كفـاح

وكأنَّما شيطان قلبه أو فكره هو الذي يجري على لسانه هذا الأنين والنواح ، ويلمح ملاك الخير يبسط الجناح فيناديه ويبثُّ آلامه وشكواه ، ويبكي الملاك معه كأنَّما ضلَّ الطريق ، ولا يلبث أن يندم على ما باح به مِن هموم فيطلب النوم علَّه يزيح هذا الغم الذي أرَّقه ، والذي لا ينبع مِن الخارج وإنِّما ينبع من داخله ، وهو يؤمن دائماً بأن ما يستشعره مِن حزن في الحياة أو سرور إنَّما هو صورة النفس الباطنة ، فمن رضي داخله رضي خارجه ، أمَّا هو فكان شديد الرضا بوجهي حياته :

([52]) المرجع السابق ، ص94.

([53]) المرجع السابق ، ص 62– 63.

([54]) المرجع السابق، ص 85

الأسود والأبيض والمحزن والمفرح ، ومِن خير ما يُصوِّرُ ذلك في شعره قصيدته : (الطمأنينة) : [55]

سقفُ بيتي حديدْ ... رُكنُ بيتي حَجرْ
فاعصفي ياريـاحْ ... وانتحبْ ياشجر
واسبحي ياغيوم ... واهطلي بالمطر
واقصفي يارعود ... لستُ أخشى خطر

***

باب قلبي حصين ... مِن صنوف الكدرْ
فاهجمي ياهُموم ... في المسا والسحر
وازحفي يا نحوس ... بالشقا والضجر
وانزلي بالألوف ... ياخطوب البشر
وحليفي القضاء ... ورفيقي القدر
فاقدحي ياشرور ... حول قلبي الشرر
واحضري يا منون ... حول بيتي الحُفَر
لستُ أخشى العذاب ... لستُ أخشى الضرر

فنفسه مطمئنة لا يكدر طمأنينتها ولا يعكرها أي شيء مهما عصفت الرياح مِن حولها وانتحب الشجر وسبحت الغيوم وقصفت الرعود وهجمت الهموم وزحفت النحوس ونزلت الخطوب والشرور ، حتى الموت وما يحفره حول بيته مِن حفر لا يعيره التفاتاً ، فهو لا يخشاه ، بل لا يخشى العذاب المنتظر ، فهو راض بالقضاء والقدر وكل ما قسمه له أو كتبه عليه.

فنعيمة في تصويره لأحوال نفسه وما يتعاقب عليها مِن ظلال الشر وأضواء الخير، إنما كان يصدر عن إيمان عميق بعالم الروح .

فنحن إزاء شاعر له أحلامه الصوفية ، وهو لذلك تطمئن نفسه تجاه محن الحياة بل هو يراها كما ذكرنا سابقاً ضرورة مِن ضرورات الوجود.

ولكن هذا التفكير كله وما ينطوي فيه مِن أحاديث نفسه إنَّما يتصل بالإنسان وما يرزح تحته مِن هموم وآلام وهذا ما نقصده به سبحات قلبه نحو عالم السماء ، فهو دائماً ما يشعر أن الأرض تثقله وأنَّه لا يستطيع التحليق في الجوِّ الروحي ، إلا إذا صفا قلبه ، بل إلا إذا أمعن القلب في أحلامه ورؤاه ولعلَّه لهذا السبب أعلن في قصيدته : (آفاق القلب) ازدراءه للعقل فقد اطمأنَّ إليه ذات يوم وظنَّ أنه يعينه في أمانيه الروحيَّة يقول : [56]

ورُحت أجوب ما استترا ... مِن الدنيا و ما ظهرا
وأبحث في غبار العيـ ... ـش عن خزفٍ وعن صدف
أراه بفكرتي دُرَّرا
ورُحتُ أقيس أيامي ... وأعمالي وأحلامي
وما حولي ومَنْ حولي ... وما تحتي وما فوقي
بأفكاري وأوهامي

ولكنَّه لم يلبث أن عرف ضلاله ، فلجأ إلى قلبه ليقوده في هذا العالم الروحي ، إنَّه عالم لا يخضع لقياس العقل ولا ينزل عند أحكامه وأوهامه ، عالم لا يُهتدى فيه ، إلا القلب ، فهو لا يُدرك بالفكر ولا بالحسِّ وإنمَّا يُدْرك بالبصيرة، وتخلص نعيمة مِن عقله ولكنه شعر في أحوال كثيرة أنه لا يستطيع الوصول إلى غايته مع أنَّ وسائلها كلها ملك قلبه وملك قلب كل إنسان ، وكأنَّ الناس لا يدرون فهم يبحثون عنها في كل مكان ، جاهلين أنها بين جوانحهم ، وقد عبَّر عن ذلك بقصيدته : (الطريق) تعبيراً واضحاً : [57]

وسنبقى نفحص الآ ... ثار مِن هذا وذاكْ
ريثما تدرك أنَّ ... الدربَ فينا لا هناك

ومِن أروع أشعاره التي تُصوِّر قلقه النفسي إزاء ما يريده مِن تبين هذا الدرب الروحي المستكن في أعماق قصيدته : (التائه) وهو يستهلها بأنه ضال في مهمة سحيق يكتوي فيه بنيران حياته وآماله وأطماعه وقد باعدت السماء بينه وبينها ، وهو لا يدري أذلك مِن تغلب الهوى ومطالب الجسد عليه أم مِن تغلب الفكر والشكوك

(55) المرجع السابق ، ص71–72

(56) المرجع السابق ، ص57.

(57) المرجع السابق، ص42.

العقل أم مِن قصور قلبه ومشاعر فؤاده فيتضرع إلى ربه: [58]

أخـــالقي رُحْماكـــا بمـــا بـــرت يـــداكا
إن لم أكـــن صـــداكا فصـــوت مَـــنْ أنـــا
ربي ألا تـــــــراني أســـاق كـــالحُمْلان
ربي ! أَمَـــا كفـــاني عمـــاىَ والـــونيَ

***

أبـــدل لظـــى نـــيراني بجمـــرة الإيمـــان
واجعـــل مِـــن الجنـــان للقلـــب مرهمـــا

إذ ذاك بالتـــــهليل أســـير في ســـبيلي
وخـــالقي دليلـــي ووجهـــتي الســـما

فهو يدعو ربَّه أن يخلصه مِن قيود شهواته التي يساق فيها سوق الحملان ، والتي تُعمى فيها بصيرته وروحه وهي ليست قيوداً بل هي نيران تعتلج في قلبه ويرجو مِن الله أن يُبديَ له مِنها جمرة الإيمان فنارها نار سلام ليداوي بها هذه الجروح الناشبة في فؤاده ، حينئذٍ يهلل تهليلاً ، إذ يرى سبيله على ضوء هُداه فيصعد في مراقي السماء.

ونراه يؤمن إيماناً عميقاً بخلود الرُّوح بعد تحررها مِن الجسد وأعبائه وقيوده أو سجونه ، بل يؤمن بأن الولادة والموت جميعاً إنما هما حلقتان في سلسلة الحياة غير المتناهية وقصيدته : (أوراق الخريف) توضح هذه الفكرة توضيحاً دقيقاً وهو يستهلها بقوله : [59]

تنـــاثري تنـــاثري يابهجـــة النَّظـــرْ
يـا مـرقص الشـمس ويـا أرجوحـــة القمـــر
يـــا أرغـــن الليـــل ويـــا قيثـــارة السَّـــحرْ
يـــا رمـــز فكـــر حـــائر ورســـم روحٍ ثـــائر
يـــاذكر مجـــدٍ غـــابرٍ قـــد عافـــك الشـــجرْ

تناثري تناثري

ومِن خلال ما تقدم يتضح أنَّ ديوان : (همس الجفون) يشكل حياة نفسيه تامة ، وهي حياة نفس مطمئنة هادئه كالبحر الساجي ، فلا رياح ولا عواصف ، بل تقبُّل للحياة بما فيها مِن خير وشر وازدراء للعقل وشكوكه وأوهامه، وإيمان بالقلب وما يدرك من أسرار الوجود وألغازه ، ورغبة في الوصول الصوفي إلى عالم السماء الروحي ، وشعور عميق بوحدة الوجود ، فمظاهر الكون جميعها تعبر عن قدرة الله. فنعيمة يعرض ذلك كله ويعرض معه كيف رَاضَى نفسه على الإيمان به .

الخاتمة:

النتائج :

- إنَّ الشعر العربي الحديث أرضٌ خصبة لا يزال في حاجة إلى مزيد مِن الدراسات والبحوث .
- ذات الشاعر في الشعر العربي الحديث استطاعت أنْ تتفاعل مع قضايا الحياة والكون دون أن تذوب فيها، بمعنى آخر حافظت على ذاتيتها على الرغم مِن تواصلها مع الآخرين.
- اتصال الشاعر العربي بالغرب وتأثره به لم يُلغِ شخصيته ؛ لأنَّه يتكِيء على إرث تاريخيٍّ عتيق.

التوصيات :

- هذا البحث تلَّمسَ جوانب معينة مِن ذات الشاعر في الأدب العربي الحديث وعليه نرجو أن تأتي دراسات أخرى لتتناول مظاهر الذات التي لم يتطرق إليها هذا البحث.

المصادر والمراجع :

1. ابن منظور، محمد بن مكرم(د.ت) لسان العرب، دار المعارف، القاهرة.
2. المرزباني(1965م) الموشح ماخذ العلماء على الشعراء، جمعية نشر الكتب العربية، الطبعة الثانية، القاهرة .
3. ابن سلام الجمحي، (د.ت) طبقات فحول الشعراء، قرأة ، وشرحه12: محمود محمد شاكر، السفر الأول، مطبعة المدني.

([58]) المرجع السابق ، ص52.

([59]) ديوان، همس الجفون ، ص45.

4. الجاحظ (د.ت) البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الرابعة ، ج1، مكتبة الخانجي، القاهرة.
5. إبراهيم عبد الرحمن محمد (1997م) مناهج نقد الشعر في الأدب العربي الحديث، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر.
6. الصباغ، رمضان(2013م) جماليات الشعر العربي المعاصر، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية .
7. عز الدين إسماعيل، (1955م) الأسس الجماليَّة في النقد العربي عرض وتفسير، ومقارنة، ط1، دار الفكر العربي، بيروت.
8. المقري (1922م) المصباح المنير، مادة (ذات) ، ط5، مطبعة الأميرية ، القاهرة.
9. محمد غنيمي هلال (1973م) النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة، دار العودة ، بيروت لبنان.
10. رمضان محمد القذافي (1993م) الشخصية" بنغازي، دار الكتب الوطنية.
11. إبراهيم أحمد أبو زيد(1987م) سيكولوجية الذات والتوافق، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.
12. فيصل عباس(1994م) التحليل النفسي للشخصية، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت.
13. فادية عمر خولاني(1997م) دراسات الشخصية العربية، مطبعة ومكتبة الإشعاع الفنية.
14. محمد خلف الله(1947م) من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
15. محمد زكي العشماوي(1984م) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
16. محمد الصادق عفيفي (1978م) النقد التطبيقي، والموازنات، مكتبة الخانجي، القاهرة.
17. عز الدين إسماعيل(1994م) الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، ط5، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة.
18. البارودي(1998م) ديوان البارودي ، تحقيق: علي الجارم ، محمد شفيق معروف،ج1، دار العودة، بيروت.
19. العقاد، عباس محمود(1950م) شعراء مصر بيئاتهم في الجيل الماضي، توثيق القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية.
20. البارودي(1954م) ديوان البارودي، الجزء الثاني، مطبعة الأميرية، مصر.
21. عبد القادر القط (1981م) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ط2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
22. عبد المحسن طه بدر (1991م) التطوُّر والتجديد في الشعر المصري الحديث، الهيئة العامة للكتب، القاهرة.
23. محمد مصطفي هدَّارة (1990م) دراسات في الأدب العربي الحديث، ط1، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان.
24. عبد الحي دياب، (1968م) النزعة الإنسانية في شعر العقاد، دار النهضة العربية، بيروت.
25. عباس العقاد (1976م) ديوان العقاد، ج2، مطبعة وحدة الصيانة والانتاج، اسوان، مصر.
26. محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، د.ن.
27. ميخائيل نعيمة(2004م) ديوان همس الجفون، ط6، بيروت، لبنان.